فن العمارة الإسلامية
فى الحرمين الشريفين
بقلم الأستاذ محمد مصطفى صبره

العمارة الاسلامية بدأت منذ العصور الأولى في الاسلام وقد امتازت بالبساطة والمرونة والابداع والتطور في نفس الوقت كما أنها احتفظت بعد ذلك بأصالتها وطابعها المميز في جميع مراحل تطورها خلال القرون العشرة الأولى في الاسلام.

فقد ظهر الفن العربي الاسلامي فريدا في نوعه مميزا عن غيره من سائر الفنون التي سبقته كما كانت لحياة الصحراء وحب سكانها العرب للشعر تأثيرا ليس بالقليل على الفن والعمارة الاسلامية.

وقد استفاد العرب من خبرة المعماريين والفنانين في البلاد التي سبقتهم في هذا المضمار وقد ساعد في ذلك الفتوحات التي قام بها العرب لهذه البلاد واختلاطهم بأهلها حيث نشأ عن ذلك استفادة الفن الاسلامي من فنون هذه البلاد مع احتفاظه بخصائصه ومميزاته التي تميزه عن غيره من الفنون – ومع ازدياد الحضارات العربية واتساع الأراضي التي سيطر عليها العرب شرقا وغربا فقد ازدهرت العمارة الاسلامية وسايرها في ذلك الفن الاسلامي الذي كان من أدق وأروع الفنون جميعها.

وقد تطورت العمارة الاسلامية منذ عصورها الأولى بأبسط صورها ثم تطورت حسب الأزمنة والظروف التي مرت بها ومن أوضح الأمثلة لذلك المساجد الأولى في الاسلام وهي المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة

فالمسجد الحرام سماه الله سبحانه وتعالى بالبيت العتيق وبناه ابراهيم واسماعيل عليهما السلام عندما هاجر الى جبال فاران وهي أرض مكة – فان الخليل دعا الله تعالى (ربنا اني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون).

وهذه الاية تدل على وجود بيت الله الحرام عندما هاجر ابراهيم واسماعيل عليهما السلام الى مكة المكرمة وقد اتفق على أن الله تعالى قد أمر آدم عليه السلام باعادة بناء الكعبة في وادي مكة الذي كانت الملائكة قد شيدتها فيه قبل خلق الانسان وعندما طغى الطوفان وطوى في لجته كل ما على الأرض رفعت الكعبة الى السماء حتى اذا غاض الماء أعاد بناءها في مكانها السابق ثم قام ابراهيم واسماعيل عليهما السلام برفع قواعدها حتى انتهيا الى موضع الحجر وقد امتنع الناس بعد ذلك عن السكنى بجوار هذا المكان الجليل تعظيما وتقديراً وسكنوا الشعاب والكهوف ثم أخذ الناس يقتربون ويقيمون دورهم حتى اكتملت دائرة من المباني حول البيت الحرام من جميع الجهات وكانت بينه وبينهم أرض فضاء سميت بعد ذلك بالمطاف وقد كان تنظيم المباني حول البيت الحرام على أن تكون مخالفة في شكلها عن بناء الكعبة المشرفة وظل هذا الوضع على ماهو عليه قبل الاسلام وحتى عهد الرسول ﷺ ثم عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه الى أن رأى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه – العمل على توسعة رقعة الحرم لتزايد عدد المسلمين وضيق المساحة التي تضم الطواف فأمر باجراء توسعات وزيادات معمارية لاستيعاب الحجاج والمعتمرين الذين كانوا يتزايد عددهم وقام بشراء تلك الدور ودفع قيمتها الى أصحابها ثم هدمها

لبناء المسجد مكانها وقال في ذلك (أن الكعبة بيت الله ولابد للبيت من فناء وانكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم).

وأقام للمسجد جداراً فيه بعض الأبواب وجعل فوقها مصابيح تضاء ليلا ثم قام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بتوسعة أخرى في المسجد وذلك بعد عدد المسلمين المقبلين من كل فج عميق للحج والاعتمار وكان ذلك بعد حوالي تسع سنين من التوسعة الأولى فابتاع عثمان الدور التي تحيط بالمسجد وضمّها اليه وقام بتجديدات في مبانيه وأقام لها رواقا مسقوفا ثم جاء بعده عبد الله بن الزبير وقام بدوره في توسعة المسجد وتجديده على نمط الصالحين الذين سبقوه في ذلك.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك أجريت توسعات كبيرة وجدد في بنائه وقام بزخرفته وكساء أعمدته بالرخام والمواد التي جلبها خصيصا من البلاد كما سقفت أروقته وزينت جدرانه بالاحجار والنقوش.

وفي عام ١٣٩هـ زاد الخليفة أبو جعفر المنصور على يد عامله في مكة زياد

الحارثي في مساحة الأرض التي ضمت للحرم لتوسعته وزاد في عدد أروقته وزينها.

وبعد ذلك بواحد وعشرين عاما أمر الخليفة المهدي بتوسيع مساحة المسجد لضيقها وعدم استيعابها لجموع الحجاج والمصلين فاشترى الدور المجاورة وضمها للمسجد ثم بعد ذلك بأربع سنين أمر بتوسعة أخرى في المسجد وحتى تكون الكعبة المشرفة في المنتصف بعد أن لاحظ أن الكعبة قريبة من الطرف الجنوبي للمسجد.

وفي عهد السلطان سليم العثماني ظهرت بعض التشققات في أبنية المسجد فأمر بترميمها وتجديد التالف منها وهدم بعض الأروقة وبنى أسقفها على شكل قباب ولم تجر فيه تجديدات بعد ذلك الى أن قامت حكومة المملكة العربية السعودية بالتجديد والتوسعة الشاملين عام ١٣٧٥هـ حتى أنه أصبح يتسع الآن لأكثر من ستمائة ألف من المصلين وبعد التجديدات الشاملة لمبانيه كسيت حوائطه بالرخام وحليت بالمرمر والموازيك وأضيفت عليها الأحجار الصناعية التي أضفت عليها رونقا وجمالا ونقشت بنقوش اسلامية عربية دقيقة.

ويعتبر هذا التجديد خطوة التطور لعمارة المسجد النبوي واستعان في ذلك بخبرة العمال المهرة من الروم الذين جلبهم من بلاد الروم وأيضا بعمال من الشام أيضا واستعان أيضا بمواد البناء والتزيين وبعث اليه ملك الروم الذهب والفسيفساء لتجميل الأبنية وعمل النقوش والزخارف والتشكيلات الفنية التي تميز بها بعد ذلك.

وقد اكتمل للمسجد بهذه الزيادة العناصر الرئيسية التي تقوم عليها المساجد واستهل ذلك اقامة المآذن بشكلها الحالي كما أدخل عليه المحراب.

وقد قام بعد ذلك بعض الخلفاء بتجديد وترميم المسجد والزيادة في مساحته منهم الخليفة المستعصم بالله والأشرف قايتباي ثم السلطان عبد المجيد خان وكان ذلك في عام ١٢٦٣هـ. وظلت العمارة في المسجد النبوي على ما هي عليه الى أن جاء عهد الدولة السعودية فجددت فيه مرتين أولاهما في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود فقد أمر بضم المباني حول المسجد لزيادة مساحته وكانت هذه التوسعة أكبر توسعة في الحرم النبوي منذ انشائه.

أما المرة الثانية التي تم فيها توسعة المسجد في عهد الدولة السعودية فكانت في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز وقد استخدم فيها عدد كبير من المهندسين والفنيين المتخصصين مع أحدث الوسائل في فن المعمار الحديث.

المصادر والمراجع

١ – المسالك والممالك : ابن اسحق الأصطخري – القاهرة
٢ – الروض الأنف : عبد الرحمن السهيلي – القاهرة
٣ – مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي – بيروت
٤ – فتوح البلدان للبلاذري
٥ – تاريخ اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب – بيروت
٦ – التاريخ الاسلامي : علي ابراهيم حسن – القاهرة